

في أروقة غرفة المعلّّات... حيث تُصاغ الحكايات وتُبنى الرسائل

د. أروى علي أخضر

دكتوراه الفلسفة في الإدارة التربوية

ليست غرفة المعلّّات مجرد مساحةٍ تفصل بين حصتين، ولا طاولةً تتوسطها أكواب القهوة وأوراق التحضير. إنها عالمٌ قائمٌ بذاته، نابضٌ بالحكايات، مزدحمٌ بالخبرات، ومفعّمٌ بمزيجٍ فريدٍ من التعب والرسالة.

في تلك الغرفة تُعلّق العبايات، لكن لا تُعلّق الهمم. تُغلق الأبواب، لكن لا تُغلق القلوب.

هناك تبدأ الحكاية؛ مع معلمةٍ أنهت حصّةً شاقةً مع طالبةٍ تحتاج دعمًا إضافيًا، فتجلس لتلتقط أنفاسها، وما تلبث أن تجد نفسها تحكي... لا لتشكو، بل لتتعلّم. فتسمع من زميلتها تجربةً مشابهة، ومن أخرى استراتيجيةً مختلفة، ومن ثالثة كلمةً مواساةً تغيّر زاوية النظر بالكامل وهكذا يتحول الموقف الفردي إلى خبرةٍ جماعية.

وفي هذا الفضاء التربوي الحيّ، تُداول الأفكار قبل أن تُطبّق، وتُناقش الأنشطة قبل أن تُنفّذ وتُحلّل النتائج قبل أن تُقيّم، هي ورشة عمل غير رسمية، لكنها الأكثر صدقًا وواقعية، هي مجلس شورى تربوي يومي، بلا محاضر رسمية، لكن بمحاضر محفوظة في الذاكرة.

ومن هنا تُولد المبادرات:

فكرة إذاعة مدرسية خرجت من نقاش عابر، مشروع تطوعي بدأ بجملة: "ما رأيكن أن نجرب؟" خطة دعم لطالبة متعثرة انطلقت من ملاحظة دقيقة شاركتها معلمة محبة. وفي الزاوية الأخرى، قد تدور أحاديث إنسانية خفيفة؛ عن طفلٍ مريض، أو مناسبةٍ أسرية، أو نجاح ابنٍ ينتظر الدعاء. فتتحول الغرفة إلى مساحةٍ دعمٍ نفسي، تتقاسم فيها المعلّّات أعباء الحياة كما يتقاسم مسؤولية التعليم.

في أروقة غرفة المعلّمت...

تُصاغ الحكايات، وتُنضج الخبرات، وتُبني الرسائل، وتتجدد الدافعية، وغرفة المعلّمت لا ينبغي أن تكون مكانًا عابرًا أو مساحةً محايدة؛ فهي ليست غرفة انتظار، بل غرفة أثر، وغرفة طاقة... وغرفة قيادة تربوية هادئة تصنع الفرق كل يوم، بل ينبغي أن تكون بيئةً ملهمة تُنعش الروح وتُجدد الطاقة المهنية، فالمكان يؤثر في المشاعر، والمشاعر تؤثر في الأداء، والأداء يصنع الأثر.

ومن هذا المنطلق، فإن غرفة المعلّمت لا ينبغي أن تُختزل في بعدها الاجتماعي والمهني فحسب؛ بل يجب أن تُصمّم بوصفها بيئةً تربوية محفّزة ومتكاملة. فالمكان ليس تفصيلًا ثانويًا في العملية التعليمية، بل هو عنصرٌ مؤثر في جودة الأداء. وغرفة المعلّمت ينبغي أن تكون:

- مساحةً مهيأةً بأثاثٍ مريح يدعم الراحة الجسدية بعد ساعات من الوقوف.
- ركنًا للقراءة والاطلاع مزودًا بمراجع تربوية حديثة.
- بيئةً تقنية تحتوي على أجهزة حديثة وإنترنت مستقر لدعم التحضير والتطوير.
- مساحةً هادئة للتفكير والتخطيط الفردي.
- لوحاتٍ تحفيزية تعكس رسالة المدرسة وقيمها وإنجازاتها.
- شاشات عرض لمشاركة الأفكار وطاولة اجتماع لعقد الاجتماعات المصغرة.

وعندما تكون غرفة المعلّمت منظمة، مضاءة بإضاءة طبيعية، ذات ألوان مريحة، وتهوية جيدة، فإنها تتحول من "غرفة استراحة" إلى مساحة شحن مهني ونفسي. تصبح المكان الذي تستعيد فيه المعلمة طاقتها، وتعيد ترتيب أفكارها، وتستحضر شغفها برسالتها، فالبينة المكانية التربوية لا تؤثر على الطالبات فقط؛ بل تبدأ من المعلمة. وكلما شعرت المعلمة بالتقدير عبر توفير بيئة عمل لائقة ومحفزة، انعكس ذلك مباشرة على عطاءها داخل الفصل. وغرفة المعلّمت — رغم كل جمالها — ليست خالية من التحديات. قد تمر لحظات اختلاف، أو تباين في وجهات النظر، أو ضغوط عمل تتراكم. لكن سرّها الحقيقي يكمن في قدرتها على إعادة التوازن؛ ففي كل مرة يشهد التعب، تظهر كلمة طيبة، أو ضحكة صادقة، أو مبادرة تقدير تعيد الروح إلى المكان، وفي أروقة غرفة المعلّمت تتشكل ثقافة المدرسة. ومن جودة هذا المكان تنعكس جودة الرسالة.

فكما نهتم بتهيئة الفصول والمختبرات للطالبات، ينبغي أن نهتم بتهيئة غرفة المعلّّات باعتبارها القلب النابض للهيئة التعليمية، ومنها تنتقل العدوى الإيجابية إلى الفصول، ومنها تتسرب الروح المهنية إلى الطالبات، ومنها تعزز قيم التعاون والاحترام والاحتواء.

هي المكان الذي تتقاطع فيه الأدوار: المعلمة، والمرشدة، والأم، والقائدة، والصديقة. كل واحدة تحمل قصتها، لكنهن يجتمعن على رسالة واحدة. ربما لا تُوثق كل تلك اللحظات في تقارير رسمية، ولا تُذكر في خطط تشغيلية، لكنها تظل العمود الخفي الذي يسند العملية التعليمية.

“إذا أردت فصلاً نابضاً بالحياة، فابدأ بغرفة معلّّات نابضة بالروح؛ لأن المعلمة المهمة تحتاج مساحةً تُلهمها أولاً.”